**حسن حنفي والإسلام**

**الدكتور أحمد ماجد**

1. **حسن حنفي والقرآن والوحي**.

الوحي بالنسبة إلى حسن حنفي فكرٌ ينبت في الشعور، وهو ليس عبارة عن كلمات تامة أُنزلت على النبي، ونصوصه: "نشأت في الشعور، إما في الشعور العام الشامل وهو ذات الله، أو في الشعور المرسل إليه والمُعلن فيه، وهو شعور الرسول أو شعور المُتلقي للرسالة، وهو شعور الإنسان العاديّ الذي قد يشعر بأزمة فيُنادي على حلٍّ ثم يأتي الوحي مُصَدِّقًا لما طلب"[[1]](#footnote-1)، وبذلك يكون حنفي قد عاد إلى نظرية المعتزلة التي تقول بأنّ القرآن الكريم محدث، ولكن مع تعديلٍ جوهريّ يتمثّل في تحويل الكلام إلى طبيعة شعورية تحضر في الذات ككليات أو ماهيات، يتمّ إنزالها على الأنبياء عبر الملاك بواسطة الخيال -والكلام هنا ليس كلام الله إنّما هو كلام جبريل عليه السلام الذي حصّله شعوريًّا من الله-، ويتفاعل مع الحياة الإنسانية عبر الواقع عندما يقوم الشخص بتفعيل مضمونه مع المُعاش، وهذا ما يجعل الوحي لا يدرك إلا من خلال حدس الشعور الذاتي.

وهذا الشعور الذاتيّ عند النبي يجعل الرسائل الدينية تتمايز فيما بينها بحسب طبيعة الخيال وشعور النبي وواقعه الخاص، فالنبي الفَرِح يُوحى إليه بحوادث فرحة، والحزين تؤيده آيات حزينة، يقول حنفي: "يختلف الأنبياء فيما بينهم حسب خيالهم وطبعهم ومعتقداتهم وآرائهم، فالنبي الفرح تُوحى إليه الحقائق بحوادث سعيدة، والنبي الحزين تؤيده آيات حزينة. والنبي ذو الخيال المرهف تُوحى إليه الأشياء بصور ناعمة رقيقة، والنبي الريفيّ يُوحى إليه بصور ريفية، والنبي الجندي يُوحى إليه بصور عسكرية، والنبي رجل البلاط يُوحى إليه بصور ملكية. ويختلف الأنبياء فيما بينهم حسب معتقداتهم في السحر والتنجيم، فتوحى إليهم الموضوعات السحرية كما أُوحيت للمجوس ولادة المسيح، ومن يؤمنون بالكهانة والعرافة يُوحى إليهم في أمعاء الضحايا، ومن يؤمنون بحرية الاختيار يُوحى إليهم بأنّ الله لا يتدخل في أفعال البشر"[[2]](#footnote-2).

فالوحي لا يتم من خلال إنزال الكلام التام، إنّما من خلال قوة التخيُّل والقدرات الشعورية للأنبياء، الذين يشبهون كلّ البشر من ناحية المحتوى العام الفكري، مع تفاضل في قدراتهم الخيالية، فالأنبياء لم يكونوا أكمل فكرًا، بل أخصب خيالًا[[3]](#footnote-3) لتلقي: "المبادئ العامة في المعرفة الإنسانية"[[4]](#footnote-4)، بالإضافة إلى: "مجموعة من البواعث التي تبعث على النشاط وتدفع إلى الحركة"[[5]](#footnote-5)، وإعادة صياغتها والتعبير حسب البيئة التي يعيش فيها النبي، وهذا ما يجعل: "مهمة النبي هي صياغة الوحي أي المعاني الصرفة، بأسلوبه وبطريقته وباستدلالاته الفطرية أو البيئية المكتسبة حسب مستوى فهم العامة"[[6]](#footnote-6)، فالله عزّ وجلّ: "لم يرسل وحيًا بالمعنى واللفظ، ولكنه أعطى المعنى فقط يقذفه في قلب النبي الذي يقوم بصياغته في ألفاظ من عنده"[[7]](#footnote-7)، على أنّ تبقى هذه الصياغة مفتوحة باتجاه الإنسان دون إكراه له.

 فمهمة الوحي ليست هي تعبيد الناس وهدايتهم وتعريفهم بالله تعالى، وإنّما مهمته تربوية محضة الغاية منها تربية الإنسانية حيث يقول: "مهمة الوحي تربوية محضة. والغاية منه تربية الإنسانية وليس إعطاء عقائد أو إقامة شعائر أو تشييد مؤسسات. فالوحي وسيلة لا غاية. إذا تحققت الغاية أدّت الوسيلة المطلوبة منها"[[8]](#footnote-8)، فهو يسعى باتجاه الدخول إلى منطقة الشعور الإنسانية، وتقديم الكليات التي تساعد في إدراك محتواه عبر علاقته مع الواقع.

فالوحي من خلال هذا الفهم لا يقوم على القصر وتحديد أُطر الفهم إنّما هو علمانيّ في جوهره، يقول حنفي: "العَلْمانيةإذن هي أساس الوحي، فالوحي علماني في جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ، تظهر في لحظات تخلّف المجتمعات وتوقفها عن التطور"[[9]](#footnote-9).

انطلاقًا، من هذا الفهم، يقوم حنفي بتقسيم الوحي من ناحية الشكل إلى ثلاثة أشكال في الخيال والثاني عبر تحوله إلى كلام، والثالث يجمع بينهما، ولكنّه يركز على تقسيم ثنائي في طيات كتبه، حيث يقول: "إنّ الوحي مخلوق إما خلْقًا فنيًّا وهو ما يقوم به الخيال[...]وإما خلْقًا فعليًّا وهومايؤولإليهالكلام"[[10]](#footnote-10)، وفي هذه المرحلة يتداخل كلام الله مع كلام البشر، يقول حنفي حول هذه النقطة: "يظنّ الكثيرون أنّ كلام الله وكلام البشر نقيضان [...] والحقيقة غير ذلك. فقد تداخل كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي في القرآن [...] الوحي هنا يقوم بعملية التطوير والتجديد والتغيير، أحكامًا لكلام البشر واستجابة له. وهو استجابة لما يتحدث به البشر، فالبشر يتكلمون ويتحدثون والله تعالى يستجيب لهم بعد ذلك بالوحي،[...] لأنّ البشر يتكلمون والله يسمع ويستجيب، الناس يتحدثون والله يرد [...] كلام الله إذن استجابة لكلام البشر [...] فالوحي والواقع صنوان على مستوى الصياغة اللغوية، وعلى مستوى الاهتمامات الفعلية"[[11]](#footnote-11). وهذا ما يجعل من الوحي ظاهرة تاريخية، يقول حنفي: "النصوص الدينية ذاتها نصوص تاريخية، نشأت في ظروف اجتماعية خاصة عُرفت باسم "أسباب النزول" وتطورت طبقًا للزمان وتجدد حاجات المجتمع! وتنوع قدرات البشرية! من حيث هي مصادر للشرع عُرفت باسم "الناسخ والمنسوخ"[[12]](#footnote-12).منتج ثقافي تشكل في الواقع خلال فترة نزوله[[13]](#footnote-13)، وصعد منه، ولم ينزل إليه، وهذا بناءً على المنهج الصاعد للوحي الذي يستعمله ويؤمن به.

 وهذا ما يقود إلى عدم اعتبار الوحي/القرآن مجرد عملية نزول للوحي من الأعلى إلى الأسفل، إنّما هي عملية جدلية، يسأل من خلالها المتداني المتعالي، فيستجيب له من خلال الوحي، لذلك: "نصوص الوحي ليست كتابًا أُنزل مرة واحدة مفروضًا من عقل إلهي! ليتقبله جميع البشر. بل مجموعة من الحلول لبعض المشكلات اليومية التي تزخر بها حياة الفرد والجماعة"[[14]](#footnote-14). لذلك، هو لا يتوقف عن الإجابة في كلّ زمان ومكان، لأنّه: "لا يوجد فرق بين كلام الله وكلام البشر بعد أن تجسَّد فيهم"[[15]](#footnote-15)، بل إنّ الإنسان عنده يستطيع أن يقول مثل كلام الله، يقول: "قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة ويا أطفال الحجارة استمروا... ويكون كلامك صحيحًا... أي أنك عبرت عن الواقع بصياغة لو كان الوحي هنا لعبر عن الواقع نفسه ربما بصياغة بلاغية أجمل"[[16]](#footnote-16)، ولعل الميزة الأكثر بروزًا في الوحي، إنّه يقلل الجهد النظري في البحث عن المبادئ العامة من أجل التركيز على التفصيلات والتطبيقات العملية[[17]](#footnote-17).

فالوحي بحسب حنفي يماثل الطبيعة، فهو في الزمن يتغيّر ويتبدل بشكل دائم، يقول حنفي: "الكلام هو الطبيعة في صورتها المثلى متطابقًا مع الطبيعة بفعل النزول، وتطورًا للطبيعة بفعل النسخ، واكتمالًا للطبيعة بفعل اكتمال الوحي"[[18]](#footnote-18)، ولهذا نرى الفعل الدائم لتغيّر الوحي مع تطور الرسالات السماوية حتى في الإسلام نفسه، فهو ليس ثابتًا لا يتغير ولا يتبدل بل يتطور بتطور الزمان والمكان؛ لأنه ليس خارجًا عنهما، من اليهودية إلى النصرانية ثم إلى الإسلام، حيث يقول: "والحقيقة أن النسخ في القرآن يدل على وجود الوحي في الزمان وتغيره طبقًا للأهلية والقدرة وتبعيته لمدى الرقي الفردي والاجتماعي في التاريخ. الوحي ليس خارج الزمان، ثابتًا لا يتغير بل داخل الزمان يتطور بتطوره"[[19]](#footnote-19).

كما إنّ الوحي لا يتناقض مع العقل، بل أنّ هذا الأخير يتعالى عليه لأنّه عندما يُنزَّل ويتحول إلى نصّ يصبح علمًا إنسانيًا خاضعًا للطبيعة البشرية[[20]](#footnote-20): "ليس للخطاب الدينيّ معنى في داخله، فالقرآن نموذج للخطاب، كتاب مسطور لا ينطق، إنّما ينطق به الرجال، الخطاب المدون حروف، كلمات وأفعال وأدوات ربط، مرئية بالعين، مدونة باليد، ومسطورة على صحف، يعطيها القارئ معناها بما لديه من قدرات لغوية ومعرفية..."[[21]](#footnote-21). فالوحي في بنيته الكلامية: "لا يُعطي إلا افتراضات يمكن التحقق من صدقها في العقل ومن صحتها في الواقع، كما يعطي حدوسًا يمكن البرهنة على صدقها بالعقل وعلى صحتها في التجارب اليومية ويكون المحك في النهاية العقل والواقع، العقل وحده وسيلة التخاطب، والواقع وحده هو القدر المشترك الذي يراه جميع الناس، فالاستدلال العقلي والإحصاء الاستقرائي دعامتا اليقين"[[22]](#footnote-22). بالتالي فمهمة الوحي محدودة يتمثل في إعطاء العقل بديهياته الأولى التي ينطلق من خلالها، أي ذلك التمحض الماهوي، وحتى في الوقت الذي لا يكون فيه موجودًا يستطيع العقل الوصول إلى نتائج قد تكون صائبة: "صحيح أنّ العقل قادر على الوصول إلى هذه البدايات اليقينية ولكنّ الوحي يقصر الوقت ويقلل الجهد، ويعطي دفعة للعقل بالأوليات الأولى[...]يمكن للوحي توفير الجهد وتقصير المسافة واختصار الشوط. فلو أراد الإنسان بجهده الخاص الحصول على النظريات ثم استنبط منها التشريعات لكان في حاجة إلى عدة أعمار"[[23]](#footnote-23).

 فنصوص الوحي بالنسبة لحنفي ظنية ولا تفيد اليقين حتى لو تضافرت وأجمعت على شيء ما أنّه حق لم يثبت أنّه كذلك إلا بالعقل وقرائن الحس والمشاهدة، وفي هذا يقول: "فإن الحجج النقلية كلّها ظنية حتى لو تضافرت وأجمعت على شيء أنّه حق لم يثبت أنّه كذلك إلا بالعقل، ولو بحجة عقلية واحدة وذلك لاعتمادها على اللغة والرواية والأقيسة ولاحتمال وجود المعارض العقلي. ولا تتحول إلى يقين إلا بقرائن من الحس والمشاهدة. والقرائن الحسية ليست فقط تدعيمًا للحجة النقلية بل للحجة العقلية كذلك. فالواقع أساس النقل والعقل على السواء"[[24]](#footnote-24)، وبالتالي يصبح النص عنده "مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها. وهذا المضمون بطبيعته قالب فارغ يمكن ملؤه من حاجات العصر ومقتضياته"[[25]](#footnote-25). ومن خلال هذا الرأي نستطيع القول إنّ الوحي: "يعطي العقل بداية يقينية مطلقة حتى يتجنب الإنسان محاولات الخطأ والصواب إلى ما لا نهاية، ويبقى احتمال الخطأ في الفهم والتطبيق أقل"[[26]](#footnote-26)، أما التحقق والنتائج فلا تكون إلا من خلال إعمال العقل والنتائج التي تنعكس في الخارج: "أما الوحي بالنسبة لي، فإنني آخذه على سبيل الافتراض. أنا في رأيي؛ الوحي هو افتراض في البحث العلمي، يقوم بدور الافتراض في البحث العلمي. فهل يتحقق؟ والتحقق من الصدق. أقصد التحقق تجريبيًّا صِرفًا وليس صوريًّا، لا اتفاق نتائج مع مقدمات، ولكن التحقق من صحة هذا الفرض في الواقع الاجتماعي. ومن ثم فأهلًا وسهلًا، أنا أتقبل كل النبوات وكل الوحي وكل الآراء. وعليّ أن امتحنها على محك الواقع"[[27]](#footnote-27)، فلا يكون الوحي نهائيًّا إلا إذا تطابق مع الواقع، يقول: "الوحي تجريبي بمعنى أنه لا يكون وحيًا نهائيًّا إلا إذا تطابق مع الواقع"[[28]](#footnote-28).

وهذا الكلام الذي أورده حنفي يقوم على كلام اعتزالي، يعتبر الإنسان لا يحتاج إلى الوحي أصلًا، لأنّ العقل الذي رُكِب في الإنسان قادر بنفسه على الوصول إلى النتائج التي يعطيها الوحي، ولذلك حتى مضمونه لا يتناقض مع الواقع الذي وُجِدَ فيه، فالوحي: "موضوع طبقًا لأسباب النزول. فهو ليس مفروضًا على الواقع بل ظهر بناء على نداء الواقع واكتمل بناؤه على تطوره وأعيدت صياغاته طبقًا لقدراته وأهليته على ما هو معروف في الناسخ والمنسوخ. هي عملية جدلية بين الفكر والواقع، الواقع ينادي على الفكر ويطلبه والفكر يأتي مطورًا للواقع ويوجهه نحو كماله الطبيعي. ثم يعود الواقع فينادي فكرًا أدق وأحكم حتى يتحقق الفكر ذاته ويصبح واقعًا مثاليًّا يجد فيه الواقع الطبيعي كماله"[[29]](#footnote-29). وبالتالي يكون العقل عنده حاكمًا على النقل ومهيمنًا عليه، يقول: "ومن هنا يكون العقل أساس النقل ليس فقط من حيث قصد الوحي، بل أيضًا من حيث مضمون الوحي والتصديق به وصدقه في الواقع"[[30]](#footnote-30).

ولما كان الوحي في نظره يتطور مرحلة بعد مرحلة، فإنه يمكن الاستغناء عنه بالكلية، وذلك حينما تبلغ البشرية مرحلة النضج العقلي، عندها كما يقول: "يستقل الوعي البشري عقلًا وإرادة، ويصبح الدين تعبيرًا عن الفطرة، والوحي مطابقًا للواقع"[[31]](#footnote-31). فلا يحتاج إلى إله يتدخل في إرادات الناس.

والخلاصة التي يريد الوصول إليها هي كما يقول: "إن الوحي ليس دينًا بل هو البناء المثالي للعالم"[[32]](#footnote-32)، وأنه مجرد مشروع عمل لا علاقة له بالسماء، "الوحي مشروع عمل، والعمل وحي متحقق. الوحي إمكانية تحولت إلى الواقع، والواقع هو تحقيق فعلي لإمكانية الوحي"[[33]](#footnote-33)، ومعنى كونه مشروع عمل يعني أنه أصبح مجرد اقتراحات قابلة للصواب والخطأ، والأخذ والرد، فالوحي كله "مجموعة من الحلول لبعض المشكلات اليومية التي تزخر بها حياة الفرد والجماعة، وكثير من هذه الحلول قد تغيرت وتبدلت حسب التجربة على مقدار الإنسان وقدرته على التحمل. وكثير من هذه الحلول لم تكن كذلك في بادئ الأمر مُعطاة من الوحي بل كانت مقترحات من الفرد أو الجماعة ثم أيدها الوحي وفرضها... فهو ليس عطاء من الوحي بقدر ما هو فرض! من الواقع وتأييد الوحي له"[[34]](#footnote-34).

1. **التراث**.

 لا يمكن تصوّر إنسان أو مجتمعٍ حضاريٍ معزول عن تراث حضاريّ، فهذا الكائن هو الوحيد بين الكائنات الأرضية الذي دوّن تاريخ وارتبط بتراث عكس حياته وتطوره، لذلك يشكل التراث عنصرًا مشتركًا بين البشر، والإشكالية ليست بحضوره، إنّما في آليات التعامل معه، حيث تفاوتت الإجابات حول هذا الموضوع، فذهب بعض الباحثين إلى اعتباره غاية قائمة بذاتها؛ فهو الماضي والحاضر والمستقبل، هو نمط الحياة في الفلسفة والدين والفن وسائر الأعمال اليومية، فجعلوه بديلًا عن كلّ شيء، وهذا الكلام وإنْ دلَّ على أهمية التراث لكنّه أدى إلى أنْ يكون التراث: "بديلًا عن الواقع، يطرد الواقع الحالي، ويُحل محلّه الواقع التراثيّ ويتمّ الخلط بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن[...]فالتراث لا يقبل واقعًا من خارجه يندّ عنه أو يهرب منه ويثور عليه. التراث ملزم ومشروع وقادر على احتواء كلّ شيء خارجه. التراث هو الذات والموضوع، الأنا والغير، الروح والمادة، مغلق على نفسه لا يمكن النفاذ إليه"[[35]](#footnote-35)، بينما ذهب فريق ثان من الباحثين لا سيما الغربيين إلى قطع صلته عنه، وأخذ بكلّ جوانب العلم الحديث والثقافة المتطورة، وذلك بعد صراع طويل بين أنصار القديم وأشياع الجديد. ويبقى الباحثون المسلمون، حيث لم يحسموا موضوع التراث وموقعيته في حياتهم، فهم من جهة مشدودون للجديد، ولكنّهم لا يريدون التخلي عن القديم، وهذا ما يجعل إشكالية التراث محور النقاشات والصراعات لديهم.

ففي المجتمعات العربية/الإسلامية ما زال موضوع التراث لم يحسم بعد، حيث نجد الاتجاه التراثي يعيش على القديم وحده، ويحاول أن يواجه كلّ معالم التحديث الفكري والاجتماعي، ويقابله نموذج آخر، يريد أن: "يقطع الصلة بالقديم لبناء الجديد على أسس من العلم والمعرفة وبالجهد الإنساني الخالص بعد اكتشاف عورات التراث وعدم ثباته أمام العلم الجديد، فالتقدم نحو الجديد مرهون بالتخلص من القديم وهو درس عصر النهضة الأوربية في القرن السادس عشر خاصة وحتى الآن"[[36]](#footnote-36)، فهذا التيار يتصور أنّ هناك إمكانية نقل تجربة الآخر إلى أرض الإسلام عبر تغيِّر الشكل: "وكأنّ التحديث هو ترك الأنا وتقليد الآخر والقضاء على الهوية والوقوع في التغريب وكما يقول الشاعر: لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية[...] ويبدو التخلف كمرحلة تاريخية لا يمكن عبورها بمجرد تغيير المظاهر الخارجية[...]فتحدث التنمية دون مفهوم التقدّم، ويتمّ التحرير والتعمير دون مفهوم الأرض، وتتّسع رقعة الخدمات دون مفهوم الإنسان ونتيجة لذلك يحدث انفصام في الشخصية الوطنية وتتجاوز فيها طبقتان من الثقافة: الأولى تاريخية متصلة محافظة أصلية والثانية منقطعة تقدمية مستوردة"[[37]](#footnote-37)، وهذا ما أوجد هوة كبيرة بين نموذجين: "تراثيّ يضحي بالتغيير الاجتماعي من أجل المحافظة على التراث، و[..]اللاّتراثي يضحي من أجل إحداث التغيِّر الاجتماعيّ"[[38]](#footnote-38).

لذلك، دعا حسن حنفي إلى ضرورة إحداث نموذج ثالث، يُبقي على التراث باعتباره الدال على الهوية المنفتحة الساعية إلى التغيِّر مما يسمح بعملية تحديثية تشمل كافة قطاعات المجتمع من جهة، ومن جهة أخرى يعمل على إعادة تأسيس علوم إنسانية تنتقل بالفهم الإسلاميّ من سيادة التصور العموديّ التسلطيّ للعالم المتمركز حول الواحد إلى التصور الأفقيّ المتمركز حول الإنسان والأرض والمجتمع والتنمية.

وهذا الأمر لا يتم من خلال تراث ماديّ فحسب، إنّما يتأسس في الذات والشعور الإنسانيّ، فالتراث من خلال هذه الرؤية ماهية شعورية، بالإضافة إلى كونه ماديّ، فهو يعيش مع الناس يحدد سلوكهم في الحياة اليومية، يحيطونه بالمدح والتقديس أحيانًا وبالانغماس فيه هربًا من الواقع الصعب أحيانًا أخرى. ويظهر هذا الأمر بوضوح إذا تناولنا موروثاتنا النفسية، حيث نجد إنّنا ما زلنا نحيا على فلسفة الكندي، وعلى أصول الدين المعتزلية والأشعرية، وعلى التصوف الداعي إلى الفقر والجوع والصبر والتوكل، وعلى إعطاء الأولوية للكليّ النظريّ على الكليّ العمليّ.

فالتراث بهذا المعنى ليس خارجًا عن الإنسان، إنّما هو ما يجعله حاضرًا في الشعور الإنسانيّ، لذلك لا بد من العودة إليه لتحليله وتجديد محتواه، والموقف منه: "موقف طبيعي للغاية، فالماضي والحاضر كلاهما معاشان في الشعور، ووصف الشعور هو في نفس الوقت وصف للمخزون النفسيّ المتراكم من الموروث في تفاعله مع الواقع الحاضر إسقاطًا من الماضي أو رؤيةً للحاضر، فتحليل التراث هو في نفس الوقت تحليل لعقليتنا المعاصرة وبيان أسباب معوقاتها، وتحليل عقليتنا المعاصرة هو في نفس الوقت تحليل للتراث[...] فالتراث والتجديد يؤسسان معًا علمًا جديدًا وهو وصف الحاضر وكأنّه ماض يتحرك، ووصف الماضي على أنّه حاضر معاش[...] يمثلان عملية حضارية هي اكتشاف التاريخ وهو حاجة ملحّة ومطلب ثوريّ في وجداننا المعاصر"[[39]](#footnote-39).

 من هنا، عمل حسن حنفي من خلال مشروعه الكشف عن الذات والأنا، التي قد تكون تخلّفت نتيجة النظرة القديمة للتراث الصادرة عن غياب النظرة العلمية الحضارية الكفيلة بنقل الإنسان من حال التلقي والنقلية إلى صرح النقد والإبداع.

وهكذا، يصل حنفي إلى القول التراث في مشروعه ليس هو معتقدات مقدّسة مغلقة، ولا هو بناء صوريّ شكليّ، ولا هو مجرد مخطوطات ومنشورات ومؤلفات أو دوائر معارف، فهو ليس بالتراث الصوريّ الفارغ الذي لا أثر له، ولا هو مجرد أشياء مادية محفوظة. فالتراث "هو المخزون النفسي عند الجماهير، هو تمركز الماضي في الحاضر، يتحول إلى سلطة في مقابل سلطة العقل أو الطبيعة تمدّ الإنسان بتصوراته للعالم وبقيمه في السلوك ويظهر التراث كقيمة في المجتمعات النامية وهي المجتمعات التراثية التي ما زالت ترى في ماضيها العريق أحد مقومات وجودها، وفي جذورها التاريخية شرط تنميتها وازدهارها"[[40]](#footnote-40)، وفي هذا المجال لا بد من التنبّه إلى أنّه على الرغم من البنية الدينية للتراث الإسلاميّ، فهذا لا يعني أنّه ظاهرة دينية تقتضي مشروعية دينية، إنّما هو بجوهره شأن شعوري: "يتداخل الديني والشعبي، المقدس والدنيوي. لا فرق في الاستخدام الشعبي بين الاستشهاد بالآية القرآنية والحديث النبوي وبين الاستشهاد بالمثل الشعبي وبسير الأبطال كلاهما مصدر سلطة ومنبعًا لمعايير السلوك. وتتداخل معهما أقوال الآباء والأجداد ونصائح المعلمين والمشايخ والرواد، الكلّ حجة سلطة وليس حجة عقل يتداخل فيه الصحيح والموضوع، التاريخيّ والأسطوريّ، المرويّ والخياليّ، الكلّ يكون مخزونًا في اللاشعور التاريخيّ للأمّة وفي ذاكرتها الجماعية"[[41]](#footnote-41).

فالتراث بهذا المعنى لا يعود مجرد ماض، إنّما هو واقع يعيشه الناس في كلّ مفاصل حياتهم الشخصية والاجتماعية: "فالتراث إن هو إلا عطاء زمانيّ أو مكانيّ يحمل في طياته كلّ شيء[...]لا يوجد دين في ذاته بل يوجد تراث لجماعة معينة ظهر في لحظة تاريخية محددة ويمكن تطويرها طبقًا للحظة تاريخية قادمة"[[42]](#footnote-42)، وما دام هو كذلك يتحول إلى مخزون نفسيّ في الجماهير، ومسؤولية فردية وجماعية، شخصية وقومية ووطنية ليس هو الأنا بل يحميها ولا يرفض الآخر بل يشاركه الحياة بإيجابية وفعّالية، ليس هو الدّين بل الدّين جزء منه، الواحد منها يحمي الآخر ويُفعّله، التراث ينمو ويزدهر بالعلم حينما يلتزم الباحث في التراث والالتزام شرط العلم فالأيديولوجية لا تضاد العلم بل تتحد معه في الوعي القومي العربي والإسلامي، وفي الوعي القومي لشعوب العالم الثالث.

انطلاقًا من ما توصلنا إليه عند حسن حنفي، لا يعود التراث دينًا مقدّسًا ولا بناءً صوريًا ولا نصوصًا محفوظة، فهو سلطة تقوم في مقابل سلطة العقل تمنح الإنسان تصورات عن العالم وعن السلوك وقيمه، ويشكل واحدًا من مقومات الشعوب النامية في وجودها، ويمثّل عامل تنميتها وازدهارها في أصولها التاريخية، ولما كان التراث كذلك فهو مستعمل من قبل السلطة ومن قبل المعارضة في المجتمعات الديمقراطية، كما يستعمل من قبل الحاكم والمحكوم والقاهر والمقهور في المجتمعات الطبيعية. كلّ منهما يجد في التراث ما يؤيده.

ويؤكد حسن حنفي على ضرورة الاهتمام بالتراث دراسةً وبحثًا واندماجًا متبادلًا بين الذات الدارسة والموضوع المدروس، والتزامًا من قبل الباحث، لأنّ ذلك يخفف من وقع المستشرق الذي عمل على رصد التراث من حيث حركته التاريخية فأفقده الحياة والموضوعية، ويقول حسن حنفي عن مشروعه: "وبالتالي كان علينا تطويره[للتراث] وتغييره بل وقلبه رأسًا على عقب، ومن هنا كان التراث واجبًا وطنيًّا والنواح على سلبياته مجرد بكاء وصراخ وعويل لا يجدي. فالسلبيات يمكن القضاء عليها بإنتاج تراث آخر أو تحويلها إلى إيجابيات بفعل سياسيّ مضاد. كما أنّ التغني بإيجابياته إعجاب بتراث الآباء والأجداد لا قيمة له إلا بمقدار مساهمة هذه الإيجابيات في حل قضايا العصر الأساسية وقبول تحدياته الرئيسية. فما الفائدة في التغنّي بالعقل في مجتمع غيبي، أو الفخر بالعدالة الاجتماعية والمساواة في مجتمع الفقر والفشل والبؤس والشقاء، أو الاعتزاز بالحرية في مجتمع القهر والتسلط تفتح فيه السجون والمعتقلات أكثر مما تفتح فيه المدارس ودور العلم أو التشدّق بالوحدة في أمة تقطعت أوصالها وتفرقت شيعًا يحارب بعضها بعضاً"[[43]](#footnote-43). فقراءة التراث ونقده وإعادة صياغته ومحاولة إعادة بنائه وفق ما تتطلبه حاجات العصر هو الكفيل الوحيد بتوظيف التراث إيجابيًّا وبفعّالية في بناء الحاضر والتطلع للمستقبل، وهي مهمة مشروع حسن حنفي بتجاوز النمط التراثيّ والنموذج اللاتّراثيّ.

فحنفي يسعى إلى تجديد التراث، الذي يخرجه من كونه مجرد متحف للأفكار نتغنى ونفتخر بها، ليتحوّل إلى مادة حيّة تُعطي النظرية العلمية في تفسير الواقع والسعيّ إلى تطويره، إلى نظرية ومحدد للعمل، وموجه لسلوك الإنسان، ومادة قومية تُكتشف وتُستثمر لإعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض، فالتخلف بمختلف مظاهره وفي جميع قطاعات الحياة يعود إلى غياب مشروع حضاري قوميّ مُحكم، وإلى غياب ثورة إنسانية في الوعيّ والفكر، والثقافة سابقة على الثورة في الزراعة أو الصناعة أو غيرها: "فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها، والإصلاح سابق على النهضة وشرط لها، والقفز إلى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم دون مضمونه وشرطه. التراث والتجديد إذن يحاول تأسيس قضايا التغيّر الاجتماعيّ على نحو طبيعيّ وفي منظور تاريخيّ، يبدأ بالأساس والشرط، قبل المؤسس والمشروط"[[44]](#footnote-44)، ويتمّ ذلك عبر إعادة جميع الاحتمالات في القضايا المعروضة، وإعادة الاختيار حسب متطلبات الحياة في العصر الحاضر: "فلم يعد الدفاع عن التوحيد بالطريقة القديمة مفيدًا ولا مطلوبًا، فكلُّنا موحدون منزهون، ولكنّ الدفاع عن التوحيد يأتي عن طريق ربطه بالأرض، وهي أزمتنا المعاصرة"[[45]](#footnote-45). وإذا كان التشبيه أو التجسيم اختيارًا قديمًا غير مقبول، قد يحرك العقول والقلوب نحو الربط بين الله والأرض، بين الله وفلسطين. وإذا كان الفصل قديمًا بين الله والعالم يبرره الدفاع عن الألوهية ضد الثقافات والفلسفات الأخرى، ففي عصرنا أصبح الموضوع مختلفًا، بل يمكن اعتبار بعض الموضوعات قد تحولت إلى معيقات للتجديد، فالفكر الأشعري قام على تصور رأسي للعالم، وهذا الأمر جاء نتيجة المواجهة التي مع المعتزلة والتي كانت تقتضي اللجوء إلى مثل هذا الأمر لمواجهة التصور الأفقي لديهم. ولكن الآن لم تعدّ هذه النظرية مجدية، بالتالي لا بد من العودة إلى فتح كل الاحتمالات القديمة، بل ووضع احتمالات جديدة واختيار أنسبها لحاجات العصر، إذ لا يوجد مقياس صواب وخطأ نظريّ للحكم عليها، بل لا يوجد إلّا مقياس عمليّ فالاختيار المنتج الفعّال المجيب لمطالب العصر هو الاختيار المطلوب: "ولا يعني ذلك أن باقي الاختيارات خاطئة، بل يعني أنها تظل تفسيرات محتملة لظروف أخرى، وعصور أخرى ولّت أو ما زالت قادمة"[[46]](#footnote-46).

وهكذا، يتحول التراث إلى شأن له علاقة بالناس سواء أكانوا جماعات أو أفراد، فهو قضية شخصية واجتماعية وقومية، تقوم على الالتزام، يلتزم الباحث به عبر علاقة شعورية، يصير هو والموضوع المدروس أمرًا واحدًا. ولا يُنقص الالتزام هنا من موضوعية وحياد الباحث المجدد فالالتزام هو نفسه موضوع العلم وبذلك: "تتكشف المشاكل القديمة في شعور الباحث المعاصر كمشاكل شخصية في حياته وحيوية ثقافته الوطنية، ويتحول التراث القديم بالفعل إلى مشكلة الثقافة الوطنية، فهو مصدر الثقافة باعتباره مخزونًا نفسيًّا مُوجِّهًا لسلوك الجماهير، وهو موجّه نحو الواقع باعتباره أساسًا لنظرية ممكنة للتغيير والتنمية، وإذا كانت ثقافتنا الوطنية تتأرجح بين القديم والجديد، بين الماضي والحاضر، فإن تجديد التراث يعطي لثقافتنا الوطنية وحدتها الضائعة وتجانسها المفقود"[[47]](#footnote-47)، وبذلك ينفتح الأفق أمام:

**1**. تحليل الموروث القديم وظروف نشأته ومعرفة مساره في الشعور الحضاري.

**2**. تحليل الأبنية النفسية للجماهير، وإلى أيِّ حدٍّ هي ناتجة عن الموروث القديم أو من الأوضاع الاجتماعية الحالية.

**3**. تحليل أبنية الواقع وإلى أيِّ حدٍّ هي ناشئة من الواقع ذاته ودرجة تطوره، أم أنّها ناشئة من الأبنية النفسية للجماهير، الناشئة بدورها عن الموروث القديم، وإنْ شئنا فالتراث والتجديد يودّ الانتقال من علم اجتماع المعرفة إلى تحليل سلوك الجماهير. أي من العلوم الإنسانية إلى الثقافة الوطنية، ومن الثقافة الوطنية إلى الثورة الاجتماعية والسياسية"[[48]](#footnote-48).

فمشروع حسن حنفي، يقوم بجزء أساسي منه على التراث، وهو جبهة من جبهات ثلاثة، هذه الجبهات التي تشير إلى جدل الأنا والآخر والواقع التاريخي. الأولى تضع الأنا تاريخها الماضي وموروثها الثقافي. والثانية تحدد الموقف من التراث الغربي أي تضع الأنا في مواجهة الآخر المعاصر وهو الوافد الغربي الثقافي أساسًا، والثالثة موقفنا من الواقع (نظرية التفسير) فإنها تضع الأنا في نظم الواقع المباشر تحاول تنظيره تنظيرًا مباشرًا فتجد النص جزءًا من مكوناته سواء كان نصًا دينيًا مدوّنًا من الكتب المقدسة، أو نصًا شعبيًا شفهيًّا من الحكم والأمثال العامية، الجبهتان الأوليتان حضاريتان نصيتان، بينما الجبهة الثالثة واقع مباشر. ويمكن رؤية الجبهات الثلاثة وكأنها أضلاع مثلث والأنا التي تعيش في الواقع

**التراث القديم التراث الغربي**

  **الأنا**

 **الواقع المباشر**

في وسطها. الأول للتراث القديم، (الماضي)، والثاني للتراث الغربي (المستقبل)، والثالث للواقع المباشر (الحاضر) على النحو التالي:

وهذه الجبهات غير منفصلة عن بعضها البعض، إنّما هي تتكامل في المشروع لتحقيق النهوض الحضاري، الكفيل بإخراج الأمة من حالة الركود، وأيّ خلل يؤدي إلى قتل الروح: "فالمعركة الحقيقية الآن معركة فكرية وحضارية ولا تقلّ أهمية عن المعركة الاقتصادية أو المعركة المسلحة، إن لم تكن أساسها. وإن الهزيمة المعاصرة هي في جوهرها هزيمة عقلية كما أنها هزيمة عسكرية. وإن الخطر المداهم الآن ليس هو فقط ضياع الأرض، بل قتل الروح وإماتتها إلى الأبد وانجرارنا إلى نقد الأصالة في تراثنا القديم ونقد المعاصرة التي حوّلها تراثنا القديم مع الثقافات المعاصرة له. التراث والتجديد هو مشروع الأصالة والمعاصرة التي لم نستطع أن نحققها حتى الآن، وبعد توالي الهزائم، ولم نكن نلمسها إلا دعاية أو ادّعاء"[[49]](#footnote-49).

وهكذا، يبني حسن حنفي مشروعه بشكلّ كليّ على الشعور، الذي يتحد مع الإنسان، ويقوم من خلاله بالإنتاج المعرفي التثويري، وهو يأخذ الشكل التالي:

**التراث والتجديد**

1. **موقفنا من التراث القديم ب- موقفنا من التراث الغربي ج- موقفنا من الواقع**
2. **من العقيدة إلى الثورة 1- مصادر الوعي الأوروبي 1- المناهج**
3. **من النقل إلى الإبداع 2- بداية الوعي الأوروبي 2- العهد الجديد**
4. **من الفناء إلى البقاء 3- نهاية الوعي الأوروبي 3- العهد القديم**
5. **من النص إلى الواقع**
6. **من النقل إلى العقل**
7. **العقل والطبيعة**
8. **الإنسان والتاريخ**

وفي كلّ جبهة من الجبهات يتمّ تجديد المعنى وتثويره عبر عملية منهجية تعود إلى الأصول لتحاول مطابقته مع الواقع.

1. حسن حنفي**، التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة 135. [↑](#footnote-ref-1)
2. حسن حنفي، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، مصدر سابق، الصفحة 48. [↑](#footnote-ref-2)
3. انظر: المرجع نفسه، من الصفحة 43 إلى الصفحة 48. ومن الصفحة50 إلى الصفحة51. [↑](#footnote-ref-3)
4. حسن حنفي، **من التراث إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء4 الصفحة 22. [↑](#footnote-ref-4)
5. لسنج، **تربية الجنس البشري**، ترجمة وتعليق: حسن حنفي، (بيروت، دار الفارابي، الطبعة2، 2006)، الصفحة121. [↑](#footnote-ref-5)
6. حسن حنفي، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، مصدر سابق، الصفحة ص48. [↑](#footnote-ref-6)
7. المرجع نفسه، المعطيات نفسها. [↑](#footnote-ref-7)
8. لسنج، **تربية الجنس البشري**، مصدر سابق، الصفحة121. [↑](#footnote-ref-8)
9. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة 63. [↑](#footnote-ref-9)
10. حسن حنفي، **من التراث إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء2 الصفحة 466. [↑](#footnote-ref-10)
11. حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن (التراث والعصر والحداثة)**،مصدر سابق، الجزء1 الصفحة 23. [↑](#footnote-ref-11)
12. انظر: المصدر نفسه، الجزء 1، الصفحة 73، وحسن حنفي، **من النقل إلى العقل**، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، 2002)، الجزء1، الصفحة63. [↑](#footnote-ref-12)
13. **ا**نظر: حسن حنفي، **حوار الأجيال**، مصدر سابق، الصفحة 413. حسن حنفي، **الدين والثورة في مصر**، مصدر سابق، الجزء6، الصفحة 82. [↑](#footnote-ref-13)
14. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة135. [↑](#footnote-ref-14)
15. حسن حنفي، **الإسلام والحداثة**، ضمن ندوة مجلة مواقف، (بيروت: دار الساقي، 1990)، الصفحة 220. [↑](#footnote-ref-15)
16. حسن حنفي، **الإسلام والحداثة**، مصدر سابق، الصفحة 236. [↑](#footnote-ref-16)
17. انظر: حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء 4، الصفحتان62 و63، وحسن حنفي، **ما الذي يمنع من حرية التفكير**، جريدة الزمان، عدد 1882 في 9/8/2004م. [↑](#footnote-ref-17)
18. حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء 2، الصفحة 462. [↑](#footnote-ref-18)
19. حسن حنفي، **دراسات إسلامية**، مصدر سابق، الصفحة **71.** [↑](#footnote-ref-19)
20. حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء **1،** الصفحة262. [↑](#footnote-ref-20)
21. حسن حنفي، **معنى الخطاب الديني**، جريدة الجريدة، العدد 273، الاثنين 14 أبريل 2008م. [↑](#footnote-ref-21)
22. حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء 1، الصفحة 373. [↑](#footnote-ref-22)
23. المصدر نفسه، الجزء 4، الصفحتان62 و63. [↑](#footnote-ref-23)
24. حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء 1، الصفحة 372. [↑](#footnote-ref-24)
25. المصدر نفسه، الجزء1، الصفحتان 374 و375. [↑](#footnote-ref-25)
26. المصدر نفسه، الجزء **4،** الصفحتان **62 و63.** [↑](#footnote-ref-26)
27. حسن حنفي، **الإسلام والحداثة**، مصدر سابق، الصفحتان 219 و220. [↑](#footnote-ref-27)
28. المصدر نفسه، الصفحة 147. [↑](#footnote-ref-28)
29. حسن حنفي، **من العقيدة إلى الثورة**، مصدر سابق، الجزء 2، الصفحة 465. [↑](#footnote-ref-29)
30. المصدر نفسه، الجزء 1، الصفحة 368. [↑](#footnote-ref-30)
31. حسن حنفي، **الإسلام والحداثة**، مصدر سابق، الصفحة 145. [↑](#footnote-ref-31)
32. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة 101. [↑](#footnote-ref-32)
33. حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن (التراث والعصر والحداثة)**،مصدر سابق، الجزء1، الصفحة 50. [↑](#footnote-ref-33)
34. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحتان 135 و136. [↑](#footnote-ref-34)
35. حسن حنفي، **دراسات فلسفية**، (القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، الطبعة 1، 1988)، الصفحة 137. [↑](#footnote-ref-35)
36. **دراسات فلسفية،** مصدر سابق، الصفحة 140. [↑](#footnote-ref-36)
37. المصدر نفسه، الصفحتان 140و141. [↑](#footnote-ref-37)
38. - المصدر نفسه، الصفحة 143. [↑](#footnote-ref-38)
39. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحتان 19 و20. [↑](#footnote-ref-39)
40. حسن حنفي، **دراسات فلسفية،** مصدر سابق، الصفحة 153. [↑](#footnote-ref-40)
41. حسن حنفي، **هموم الفكر والوطن**، الجزء 1، الصفحة 361. [↑](#footnote-ref-41)
42. حسن حنفي، **دراسات فلسفية،** مصدر سابق، الصفحة 24. [↑](#footnote-ref-42)
43. المصدر نفسه، الصفحة 31. [↑](#footnote-ref-43)
44. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحتان 13 و14. [↑](#footnote-ref-44)
45. المصدر نفسه، الصفحة 21. [↑](#footnote-ref-45)
46. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة 21. [↑](#footnote-ref-46)
47. **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة 22. [↑](#footnote-ref-47)
48. - المصدر نفسه، الصفحة 23. [↑](#footnote-ref-48)
49. حسن حنفي، **التراث والتجديد**، مصدر سابق، الصفحة 176. [↑](#footnote-ref-49)